تنغيم الصوت في الأداء اللغوي وأثره في الدلالة

أ.د.علي محسن بادي
كلية التربية الأساسية/جامعة سومر

مستويات أداء الصوت اللغوي الإنساني المجرد متفاوتة من جهات عدة أدركها القدماء بالملاحظة الشخصية ، وأثبتها المحدثون بالاستقراء والتجربة ؛ منها ما يرجع إلى طبيعية عضوية خاصة لا مورد لإرادة المتكلم في علاجها ، ومن مصاديقها السمات التي تُميِّزُ بعض الأصوات من بعض كـ (الطول) و (الكمية) وما يتبع ذلك من اختلاف في درجة شدة الصوت[1] .

ومن جهات التفاوت في مستويات أداء الصوت اللغوي الإنساني ما لا يرجع إلى طبيعة عضوية ثابتة أو حالة مرضية طارئة ، أي إنه مما تتحقق فيه الإرادة الواعية للمتكلم .

والعلة الرئيسة في اختلاف درجات الصوت الإنساني ، إن لم تكن عضوية أو مرضية ، هي طلب التناسب بين مستوى الصوت أو صفته والمعنى الذي يراد التعبير عنه ، فلا يرتفع الصوت أو ينخفض أو يمتد أو يُختلس أو تتغير نبرته بأي شكل كان إلا لكي يتناسب مع غاية الكلام أو معناه ، وهذا مما عرفه القدماء من مناطقة ولغويين ، وكاد ينحصر عند الفريق الأول في ضمن منحى منهجي معين ، هو الكلام على ما تقتضيه (صناعة الخطابة) ، ذلك أن تحكم الخطيب في مستوى الأداء اللغوي يعد من المقومات المثلى لهذه الصناعة ؛ قال الفارابي (ت 339 هـ) : «ومنها : أن تكون كيفية القول والصوت والنغمة الخارجة مع القول تُخَيِّلُ الأمرَ الذي فيه القول ، مثل أن يُخبر الإنسان عن نفسه بمصائب نالته ، ويجعل صوته صوت خاشع . وأن يخاطب إنسانا فيتوعَّده ، فيجعل صوته صوت مستطيل غضبان»[2] .

واستقصى ابن رشد (ت 595 هـ) تفسير هذه المسألة ، وفرَّع لها وجوهاً ، وذلك في تمهيد الكلام على قيمة (الألفاظ) في الخطابة بوصف التنغيم الصوتي لها من الموارد المساعدة لشدة تأثيرها في المتلقي ؛ قال ابن رشد : «وقبل أن نقول في الألفاظ فينبغي أن نقول في الأمور المستعملة مع الألفاظ على جهة المعونة في جودة التقسيم ، وإيقاع التصديق ، وبلوغ الغرض المقصود ، وهي التي جرت عادة القدماء أن يسموها (الأخذ بالوجوه) ؛ وذلك أن هذه الأشياء لَمّا

(1) ينظر : إرشاد الطالبين 87 ، والأصوات اللغوية 10 – 11 .
(2) الخطابة للفارابي 38 – 39 .

كان من شأنها أن تميل السامعين إلى الإصغاء والاستماع والإقبال على المتكلم بالوجه وتفريغ النفس لما يورده ، استُعيرَ لها هذا الاسم . وهذه الأشياء صنفان : إما أشكال ، وإما أصوات ونَغَمٌ ... وأما النغم فإنها تُستعمل في القول الخُطَبي لوجوه ، منها : لِتَخْييلِ الانفعالات والخُلُقِ ، وذاك أيضا لثلاثة أوجه ، أحدها : عندما يريد المتكلم أن يُخَيِّلَ أنه بذلك الانفعال أو الخُلُقِ عند السامعين ، مثل أنه إذا أراد أن يُخَيِّلَ فيه الرحمة رَقَّقَ صوتَهُ ، وإذا أراد أن يُخَيِّلَ فيه الغضب عَظَّمَ صوتَهُ ، وكذلك في الأخلاق . وإنما كان ذلك كذلك لأن هذه الأصوات توجد بالطبع صادرة من الذين ينفعلون أمثال هذه الانفعالات . والوجه الثاني أن يكون قصده تحريك السامعين نحو انفعال ما ، أو خُلُقٍ ما ، إمّا لِأَنْ يصدر عنهم التصديق الحاصل عن ذلك الانفعال أو الخُلُقِ ، أو الفعل الصادر عنه . والوجه الثالث :عند ما يَقْتَصُّ عن مخبرين بأن يضعهم في ذلك الانفعال أو الخُلُقِ»[1] .

ولَخَّصَ نصير الدين الطوسي (ت 672 هـ) العلاقة بين اللفظ ومستويات أدائه في ضمن المنحى المنهجي نفسه ، أي الكلام على ما تقتضيه صناعة الخطابة ، ولكنه فَرَّعَ الطرف الثاني من طرفي هذه الموازنة ، أي مستويات الأداء الصوتي ، في وصفين اتحدا في جوهر الدلالة واختلفا في المصطلح ، على حين احتفظ الطرف الأول بصفته الأصيلة ، أي بوصفه (عمود) الخطابة .

جاء تنغيم الصوت في الفرع الأول بوصفه من (أعوان) اللفظ في تحقيق المقاصد والغايات في الإقناع والتصديق ، قال الطوسي في كلامه على أجزاء الخطابة : «ويشتمل على عمود وأعوان . فالعمود : قول يفيد إقناعا . والأعوان : أقوال وأفعال خارجة تعين عليه ، وهي إما بصيرة ، كالشهادة ، وإما حيلة تُعِدُّ المُستمعَ لِأَن يذعن ، ويُسمى : استدراجات . والإعداد إمّا بحسب القائل ، لفضائله وشمائله المقتضية لقبول قوله ، وإمّا بحسب القول ، كتصرفات في الصوت والكلام يؤدي إليه ، أو بحسب المُستمع ، وهو إحداث انفعال فيه ، كالرِّقَّةِ في الاستعطاف ، والقساوة في الإغراء ، أو إيهام خُلُقِ الشجاعة أو السخاوة بمدح أو غيره»[2] .

وجاء تفاوت مستوى الأداء الصوتي في الفرع الآخر بوصفه من (التزيينات) المساعدة للفظ على تحقيق الغايات نفسها ، قال الطوسي في سياق الكلام على ما سماه (توابع الخطابة) : «وأما توابع الخطابة ، وتُسمى تزيينات ، فثلاثة أشياء ، أولها ما يتعلق بالألفاظ ، وهو أن تكون عذبة غير ركيكة ... وثالثها الأخذ بالوجوه والنَّفاقِ ، وهو من الحِيَلِ ، وقد يتعلق بالقول ، مثل رَفْعِ الصوت في موضع يليق به ، أو خفضه ، فإنه يفيد إيذانا لحال القائل ، أو استدراجا في المخاطب . وقد

(1) تلخيص الخطابة لابن رشد 250 – 251 .
(2) تجريد المنطق لنصير الدين الطوسي 69 – 70 .

يتعلق بالقائل ، كتزكية نفسه ، أو كونه في زِيٍّ وهيئة يَليقان به . ولا يمكن استعمال أكثر هذا القسم في المكتوبات ، وضعفاء العقول للاستدراجات أَطْوَعُ ، وكذلك يُطيعون المُتَنَسِّكَ وإن كان مُبْتَدِعا»[1] .

ولم تحظ مسألة التناسب بين مستويات الأداء الصوتي والمعنى أو الدلالة عند علماء اللغة بما حظيت به عند علماء المنطق من حيث التصنيف المنهجي ، إذ لم يخصصوا لها حيزا مستقلا في البحث ، وإنما وردت مباحث منها في أبواب متفرقة من مصنفاتهم ، وفي الطليعة من هؤلاء العلماء أبو الفتح عثمان بن جني (ت 392 هـ) الذي بحث المسألة في ضمن موضوع (حذف الاسم) من باب فريد من أبوب كتابه (الخصائص) هو (باب في شجاعة العربية) ، سمّى فيه الدلالة المُفادة من تنغيم الصوت بـ (دلالة الحال) ، أي حال المتكلم في أداء الكلام ، أو حال المُستمع بما يُحِسُّهُ من طريقة أداء المُتكلم ، قال ابن جني : «وقد حُذِفَت الصفةُ ودَلَّت الحالُ عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب (الكتاب) من قولهم : سيرَ عليه لَيْلٌ ، وهم يريدون : ليل طويل . وكأن هذا إنما حُذفت فيه الصفة لِما دل من الحال على موضعها ؛ وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل ، أو غير ذلك . وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأمَّلته ؛ وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلا ! فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة ، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها ، أي : رجلا فاضلا ، أو شجاعا ، أو كريما ، أو نحو ذلك . وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنسانا ! وتُمَكِّن الصوت بـ (إنسان) وتُفَخِّمه ، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك : إنسانا سَمْحاً ، أو جوادا ، أو نحو ذلك . وكذلك إذا ذممتُه ووصفتَهُ بالضيق قلتَ : سألناه وكان إنسانا ! وتَزوي وجهك وتُقَطِّبُهُ ، فيُغني ذلك عن قولك : إنسانا لئيما ، أو لَحِزاً ، أو مُبَخَّلاً ، أو نحو ذلك»[2] .

وما عرفه القدماء وسماه ابن جني بـ (دلالة الحال) عرفه الدرس الحديث وأطلق عليه مصطلحات عدة ، منها (اللغة الجانبية) ؛ قال الدكتور عبده الراجحي : «لكل كلام درجة معينة من السرعة ، وبعض الناس يعرفون بأن نطقهم بطيء أو سريع بحيث يختلف عما هو معروف في المجتمع ، ولكن المهم أن تغيير سرعة النطق في الموقف كلامي معين قد يضيف إلى معنى الألفاظ شيئا ، وقد يقلب المعنى إلى نقيضه ؛ فنحن نلحظ أن السرعة الزائدة تدل في الأغلب على الحدة أو الغضب أو الرأي القاطع ... أما النطق البطيء المُقَطَّع فالأغلب أنه يشير إلى السخرية أو عدم الرضا أو عدم التصديق ... وهذه الموازين التي ذكرناها ليست إلا أمثلة قليلة مما يرصده

(1) المصدر السابق 75 – 76 .
(2) الخصائص 370/2 – 371 .

اللغويون في أبحاثهم عن (اللغة الجانبية) . وغنيٌّ عن البيان أنها ليست موازين عامة تنطبق انطباقا واحدا على المجتمعات الإنسانية ، وإنما هي تنشأ في المجتمع نشأة اللغة العادية ، ولها نظامها الخاص كما أن للغة العادية نظامها الخاص ، ويتعلمها الطفل في المجتمع كما يتعلم اللغة ؛ فهو يتعلم كيف يستخدم الضحك والابتسام والبكاء وارتعاش الصوت وارتفاعه وغير ذلك وفقا لما تفرضه عليه ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه ، ومن ثم تختلف هذه الموازين باختلاف الثقافات ، ومن هنا أيضا أهمية (اللغة الجانبية) في الدرس اللغوي بعامة ، وعند بحث اللغة ووظيفتها التوصيلية في المجتمع على وجه الخصوص»[1] ، وختم الدكتور الراجحي بحثه بما تقدم نقله من كلام ابن جني في هذه المسألة .

وقال الدكتور إبراهيم أنيس في كلامه على ما سماه (موسيقى الكلام Intonation) : «برهنت التجارب الحديثة على أن الإنسان حين ينطق بلغة لا يتبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع الأصوات . فالأصوات التي يتكون منها المقطع الواحد قد تختلف في درجة الصوت ، وكذلك الكلمات قد تختلف فيها . ومن اللغات ما يجعل لاختلاف درجة الصوت أهمية كبرى ، إذ تختلف فيها معاني الكلمات تبعاً لاختلاف درجة الصوت حين النطق بها . ومن أشهر هذه اللغات اللغة الصينية ، إذ قد تؤدي الكلمة الواحدة فيها عدة معان ، ويتوقف كل معنى من هذه المعاني على درجة الصوت حين يُنطق بالكلمة . ويمكن أن نُسمّي توالي درجات الصوت بالنغمة الموسيقية»[2] .

والذي أشار إليه الدكتور إبراهيم أنيس يتحقق في العربية أيضاً في ضمن مفهوم (التنغيم) الذي شغل حيزا في الجهد اللغوي القديم ولكن من دون تقعيد أو تنظير في أبواب مستقلة[3] ، وقد عدّه أستاذنا الدكتور فاضل السامرائي من عناصر الجملة العربية وسماه (النغمة الصوتية) بدل (موسيقى الكلام) ، ومن ضمن ما قاله في تفسير النغمة الصوتية : «هي ذات دلالة على المعنى ، فالجملة الواحدة قد يختلف معناها باختلاف النغمة ، كأن تقول: (زيد عنده مال) وتشدُّ صوتَكَ على (مال) وتُفَخِّمُ الصوتَ فيه ، فيكون المعنى : أنه ذو مال كثير أو متعدد ونحو ذلك . وتقول : (عنده مال) وتُرَقِّقُ الصوتَ وتُكَسِّرُهُ ، فيكون معناه : أنه ذو مال قليل لا يُعتد به ونحو ذلك»[4] .

(1) اللغة وعلوم المجتمع 35 – 36 .
(2) الأصوات اللغوية 142 – 143 .
(3) ينظر : ظاهرة التنغيم في التراث العربي 81 .
(4) معاني النحو 11/1 .

ثم عضَّدَ الدكتور السامرائي قوله بكلام ابن جني الذي أفاد الرأي نفسه ، ونقل كذلك أجزاء من كلام الدكتور إبراهيم أنيس الذي ذكرناه قريباً .

ويبدو أن اختلافات درجات الصوت المعبَّر عنها بـ (النغمة الصوتية) أو (موسيقى الكلام) وما ينجم عنها من تأثيرات في المعنى ظاهرة تكاد تعم أكثر اللغات . وممن ذكرها من المعاصرين أيضا (جومسكي) الذي سماها (الصفات التنغيمية) ورأى أنها تُكمِّل نقص المعنى المعجمي للمفردات عندما قال : «إن المكوِّن الصوتي مسؤول عن جوانب أخرى يكون فيها تصميم اللغة (غير تام) . فهو يتضمن عمليات وراء تلك التي تكون مطلوبة لأي نظام شبه لغوي ، وهذه تُدخل صفات وعناصر جديدة غير موجودة في المفردات المعجمية : الصفات التنغيمية ، والصوتيات المغلقة»[1] .

المصادر

- إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين : السيوري ، المقداد بن عبد الله ، ت 826 هـ ، تح : مهدي الرجائي ، منشورات مكتبة المرعشي ، قم 1405 هـ .
- الأصوات اللغوية : د . إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1999 .
- تجريد المنطق : نصير الدين الطوسي ، محمد بن محمد بن الحسن ، ت 672 هـ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت 1988 .
- تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر : ابن رشد ، ت 595 هـ ، تح : د. محمد سليم سالم ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة 1971 .
- الخصائص : ابن جني ، أبو الفتح عثمان ، ت 392 هـ ، تح : محمد علي النجار ، ط 4 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 1990 .
- الخطابة : الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد ، ت 339 هـ ، تح : د. محمد سليم سالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1976 .
- ظاهرة التنغيم في التراث العربي : هايل محمد طالب ، مجلة التراث العربي ، السنة 23 – العدد 91 ، دمشق 2003 .
- اللغة والعقل واللغة والطبيعة : نعوم جومسكي ، ترجمة : رمضان مهلهل سدخان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد 2005 .
- اللغة وعلوم المجتمع : د. عبده الراجحي ، دار الصحابة للتراث ، طنطا – مصر 2012 .
- معاني النحو : د . فاضل صالح السامرائي ، ط 2 ، دار الفكر ، عمّان 2002 .

(1) اللغة والعقل اللغة والطبيعة 74 .